

تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار

تأليف

خليل إينا لجيك

عرض

الأستاذ :

ناصر بن

عبدالله

الهدلول*

* بكالوريوس

مكتبات ومعلومات

جامعة الإمام

محمد بن سعود

الإسلامية

١٤٠٦هـ .

- باحث في مكتبة

الملك فهد

الوطنية بالرياض .

تاريخ الدولة العثمانية : من النشوء إلى الانحدار . تأليف خليل إينا لجيك : ترجمة محمد الأرناؤوط - ط ١ - بيروت : دار المدار الإسلامي : ٢٠٠٢ م . ٣٧٦ ص .

كتاب مهم صدر حديثاً ، يسهم في خدمة الباحثين والدارسين لشؤون الدولة العثمانية والتاريخ الحديث بشكل عام ، ومؤلفه أستاذ كبير في التاريخ العثماني وهو الدكتور/ خليل إينالجيک درّس في عدة جامعات في الولايات المتحدة وفي بلده تركيا وله أكثر من ٢٠٠ مقالة بحثية والكثير من الكتب المتعلقة بالتاريخ العثماني : أما المترجم فليس أقل شأناً من المؤلف ، فهو مختص كذلك وله العديد من الكتب ، ودرّس في عدة جامعات .

يقع الكتاب في نحو ٣٧٦ صفحة .

قسم الكتاب إلى أربعة أقسام وكل قسم يتبعه فصل وفي الأخير ثلاثة ملاحق وفهرسان .

في تقديم المترجم للكتاب يذكر أهمية الكتاب وأنه لما صدر

في لندن باللغة الإنجليزية اعتبر حين ذاك مرجعاً ممتازاً للدولة العثمانية وبخاصة لمؤسسات هذه الدولة .

ويذكر المترجم أنه لما استقر به المقام في جامعة اليرموك وأخذ في تدريس مادة التاريخ العثماني وجد حاجة ملحة ودافعاً قوياً لترجمة الكتاب .. ودافع المترجم كما يقول : إن العشرات من الجامعات العربية التي تدرس أقسام التاريخ فيها مادة التاريخ العثماني ، لم تصدر خلال هذه الحقبة مؤلفات أو ترجمات تغطي حاجة الطلاب على الأقل للتاريخ العثماني العام، في حين صدرت خلال العشرين سنة الأخيرة في الغرب مؤلفات كثيرة جادة وجديدة مثل: تاريخ الإمبراطورية العثمانية للباحث ستانفورد شو الذي استفاد منه كثيراً الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى في كتابه في أصول التاريخ العثماني الذي أصبح مقررأ في معظم الجامعات العربية.

والمترجم يتندر من إعراض كبار المؤرخين وأساتذة الجامعات المختصين في هذا المجال عن التأليف في هذا الموضوع .. ونجد بروز عدد من هواة التاريخ (أطباء ، مهندسون، زراعيون ...) يكتبون وينشرون بسهولة عدة مؤلفات عن التاريخ العثماني تحمل عناوين مرجعية مع أنها تفتقد إلى المنهجية العلمية وتتحول بدورها إلى مراجع لمؤلفات أخرى . ويذكر في التقديم أنه تشاور مع زملاء كثيرين لترجمة هذا العمل المهم .. ذكر منهم الدكتور عدنان البخيت والدكتور فاضل بيات وهما أستاذان معروفان في هذا المجال . ثم يذكر أن المؤلف استخدم مصطلح «الإمبراطورية العثمانية» وكذلك مصطلح الغزو أي الجهاد والتزم مصطلحات المؤلف كلها بشكل عام .

القسم الأول من الكتاب «مدخل إلى التاريخ العثماني» وفيه خمسة فصول . الفصل الأول بعنوان: (أصول الدولة العثمانية) .. يبين المؤلف أنه مع بداية القرن الرابع عشر هزت الأزمات الداخلية العنيفة الإمبراطوريات الكبرى التي تمتد

من نهر جيحون إلى الدانوب كدولة الإيلخانيين في إيران والقبيلة الذهبية في أوروبا الشرقية والبيزنطية في البلقان وغرب الأناضول .

ثم يبين حال الأناضول قبل العثمانيين وأنه في الفترة ما بين ١٢٦٠ - ١٣٢٠م تمكن زعماء الغزو التركمان من تأسيس إمارات مستقلة في غرب الأناضول وكيف كانت سلالة ناليولونج الحاكمة في قسطنطينية مشغولة جداً بالأحداث في البلقان إلى درجة أنها أهملت حدودها الآسيوية ، مما فتح أمام التركمان احتلال هذه المناطق وكانت هذه المناطق التي سيطر عليها الغزاة المسلمون تطبق بسرعة إدارة الدولة الإسلامية القائمة على مفهوم الحماية .

ثم يذكر في الفصل الثاني بعنوان : (من إمارة حدودية إلى إمبراطورية). يذكر فيه أنه في نهاية القرن الرابع عشر كانت الدولة العثمانية مجرد إمارة من الإمارات الحدودية الكثيرة ؛ إلا أن الأحداث التي تلت سنة ١٣٥٢م وطدت تفوق هذه الدولة وجعلت كل الإمارات الأخرى تابعة لها خلال ثلاثة عقود .

وارتبط ذلك بكسب العثمانيين مواطئ قدم لهم في البلقان، تتيح لهم التوسع باستمرار في اتجاه الغرب .

ثم يذكر أن الأحداث التي حلت في إمارة قره سي على الدردنيل سهلت للعثمانيين هذه العملية الخطيرة وكان ذلك بقيادة سليمان بن أورخان الذي استفاد من كل الظروف . ثم يذكر أن سليمان أخذ ينقل بعضاً من المسلمين من الأناضول إلى أوروبا وخاصة من العشائر الرحل ؛ التي تتميز بسهولة التكيف مع المكان الجديد؛ مما أدى إلى نشوء قرى تركية جديدة .

ويذكر أن التوسع في البلقان كان محكوماً بالظروف الجغرافية التي خدمت العثمانيين ، وتزامن التوسع كذلك مع تشرذم سياسي في المنطقة ، حيث كان الحكام

المحليون يتطلعون دوماً لطلب المساعدة من الخارج لحل النزاعات الداخلية . ثم يذكر المؤلف أهمية الجيش الانكشاري في تلك الحقبة .

ويذكر أيضاً أنه ليست الظروف السياسية فقط هي التي ساعدت العثمانيين، بل والاقتصادية ؛ فضعف السلطة المركزية في بيزنطة والبلقان تواصل مع نهوض الإقطاعية .. ثم يذكر كيف استفاد العثمانيون من هذه الاقطاعيات الكبرى التي تسمى «برونة» وتحويلها إلى «تيمارات» توزع على اليايا أي الفلاحين الأتراك الذين يخدمون في الجيش ، ثم يذكر كيف طبقت سياسة التسامح الديني التي سهلت لهم عملية الفتح وبيّن كيفية التوسع الشامل والمعارك الكبرى من أجل ذلك .

في الفصل الثالث الذي هو بعنوان : (الاحتضار والانبعاث) يذكر المؤلف أسباب نهضة الدولة بعد نكبتها العظيمة في أنقرة عام ١٤٠٢م وتفسير ذلك بأنه أشبه بمعجزة حيرت المؤرخين حتى الآن .

ثم يأتي في الفصل الرابع بعنوان : (التأسيس النهائي للإمبراطورية) ذكر فيه ملخص النزاع بين البيزنطيين والعثمانيين ونهايته بالفتح العظيم للقسطنطينية ، ثم سيطرتهم على ما تبقى من الأناضول .

ويعتبر المؤلف أن محمد الفاتح هو المؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية وأنه أسس إمبراطورية في أوروبا وآسيا عاصمتها استانبول قبض لها أن تبقى أربعة قرون ونيف .

يأتي بعد ذلك في الفصل الخامس بعنوان : (الدولة العثمانية دولة عالمية) . بين أن النزاع أخذ شكل العالمية مع إمبراطوريات كبرى في أوروبا وروسيا، وكيف حقق العثمانيون نصراً حاسماً وأمجاداً لا يمحوها التاريخ .

الفصل السادس بعنوان : (انحدار الدولة العثمانية) أبان فيه أن انحدار الخط

التصاعدي للإمبراطورية بدأ مع وفاة السلطان سلمان القانوني ، بل قبيل وفاته. وأن آخر انتصار كبير للدولة كان عام ١٥٧٠م وهو فتح قبرص ، لكن هذا النصر أعقبه تحالف شرس بين الدول الأوروبية سبب للعثمانيين هزائم كبرى برية وبحرية منها معركة البيانتو وكذلك حروب منهكة مع الصفويين في الشرق وآل هابسبورغ في أوروبا .

ثم يبدأ القسم الثاني بعنوان : (الدولة) ، يفتتحه بالفصل السابع بعنوان : (بروز السلالة العثمانية) ، ذكر فيه نسب عثمان عند المؤرخين واهتمام عثمان وبنيه بلقب غازي ثم سلطان وخليفة وأمير المؤمنين وغيرها ، ثم ذكر في الفصل الثامن بعنوان : (الوصول إلى العرش) ، تحدث فيه عن أهم الشروط المتوافرة للوصول إلى العرش عند آل عثمان ، عرج فيه على قانون قتل الإخوة وذكر بعض المؤامرات والدسائس التي حصلت ودور أمهات السلاطين ، وذكر كذلك إجراءات البيعة وغيرها من المراسيم في هذه المناسبة ، ثم ذكر في الفصل التاسع الذي عنوانه : (المفهوم العثماني للدولة والنظام الطبقي) .. كيف تطور المفهوم العثماني للدولة مع تطور الإمبراطورية ؟ وكيف كانت فكرة الغزو هي المفهوم الأساس والثابت لسلطتهم؟ وكيف استفادت من الدول السابقة لها والمجاورة كذلك ؟

ثم يأتي الفصل العاشر وعنوانه : (القانون السلطاني والشرعية) . ذكر فيه إمكانية تقسيم القانون العثماني إلى ثلاث فئات حسب استقرار المؤلف وهي : الفئة الأولى مراسيم بطابع القانون يصدرها السلطان في حالات خاصة، الفئة الثانية المراسيم التي تتعلق بمجال معين أو شريحة اجتماعية معينة : أما الفئة الثالثة فتضم جميع القوانين التي كانت تطبق في السلطة العثمانية .. يأتي بعد ذلك الفصل الحادي عشر وعنوانه : (البلاط) . تحدث فيه بشكل إجمالي حول أهمية البلاط في السياسة العثمانية وكيف كان يعتبر بالغ الأهمية عند السلاطين ، وبين

أنواع العمل وأصنافه وأنواعه في قصور السلاطين مع شيء من التفصيل عن الخدم والعبيد والجواري، مزوداً بجدولين توضيحيين، ثم يأتي الفصل الثاني عشر بعنوان: (الإدارة المركزية) . بين فيه بشكل موجز كيفية إدارة الدولة عند السلاطين وجدول أعمالهم اليومية ووظيفة الباب العالي والعاملين في الديوان السلطاني، وتحدث عن العلماء وأنهم كانوا يمثلون أكبر قوة مستقلة في الدولة عن الصدر الأعظم، وكيف كان الصدر الأعظم في أغلب الأحوال يعتبر الممثل المطلق للسلطان في السلطة التنفيذية وشيخ الإسلام الممثل المطلق للسلطان في السلطة الدينية، ثم تحدث عن بعض شيوخ الإسلام ودورهم القوي وتحدث كذلك عن البيروقراطية عند العثمانيين وأنها تعود إلى التقاليد القديمة لدول الشرق الأدنى السابقة على الإسلام .

يأتي بعد ذلك الفصل الثالث عشر وعنوانه : (إدارة الولايات ونظام التيمار) . بين فيه أهمية ذلك مع التوسع العظيم للدولة، وكيف كانت هناك ٣١ ولاية ، بعض هذه الولايات تتمتع بحكم ذاتي، وإدارة المناطق الموروثة تختلف عن غيرها، وكذلك تحدث عن نظام السباهية والتيمار وكيفية إدارة الخزينة . ثم يبدأ القسم الثالث بعنوان : (الحياة الاقتصادية والاجتماعية) ، بدأه بالفصل الرابع عشر وعنوانه : (الإمبراطورية العثمانية والتجارة الدولية) . بين فيه أهمية الطرق التجارية وبالذات طريق الحديد في اقتصاد الأناضول ، ويتحدث عن بورصة العاصمة السابقة وازدهارها الاقتصادي ، ثم تحدث عن الطرق التجارية مع الهند والبحر الأسود وأوروبا ، أوضح فيه بشكل سلس وممتع أنواع البضائع المتبادلة وإدارة السوق وقمع الغش . يلي هذا الفصل الخامس عشر وعنوانه : (المدن العثمانية) . تحدث فيه عن أطوار المدن في الإمبراطورية العثمانية وكيف كان العثمانيون يطورون هذه المدن ويعززونها بالخدمات والقلاع ، ثم تحدث عن شبكات الطرق واستراحات

القوافل والخانات وكيف أولت الدولة العثمانية اهتماماً بالغاً بالطرق: لضمان سلامة القوافل وأمن المسافرين وراحتهم . وتحدث كذلك عن الأصناف وكيف كانت الأصناف الحرفية تمثل الحياة الاقتصادية، وتحدث كذلك عن بروز النقابات .. ثم يبدأ بعد ذلك القسم الرابع بعنوان : (الدين والثقافة في الدولة العثمانية) .

يبدأ هذا القسم بالفصل السادس عشر وعنوانه: (التعليم والمدارس والعلماء). تحدث فيه عن أول مدرسة عثمانية في أزميق عام ١٢٣٠م ، ثم ذكر أن أي سلطان عندما يرغب في تأسيس مدرسة جديدة كان يدعو العلماء من المراكز الثقافية القديمة في قونية وقيصرية ومن بلاد الشام ومصر وفارس وتركستان .. وذكر أن محمد الفاتح الذي أوجد هذه الإمبراطورية كان يشكو من خلو الدولة من علماء يمكن مقارنتهم بعلماء الدول الإسلامية الأخرى ، ثم تحدث عن نظام مدارس الخارج والداخل ، ثم ذكر في الفصل السابع عشر وعنوانه : (العلوم العثمانية) . بين فيه أن العلوم العثمانية كانت مرتبطة بالمفهوم التقليدي الذي يرى أن التعليم الديني هو العلم الحقيقي الوحيد، وذكر أن بعض العلماء العثمانيين برزوا ككتاب موسوعيين أمثال محمد الفناري والملا لطفي وطاش كبري زاده وحاجي خليفة .. وألح إلى أهمية المكتبة عند العلماء، وذكر بدايات الطباعة في إستانبول ، وذكر أن الكتاب العثمانيين اتخذوا اللغة العربية لتدوين مؤلفاتهم الدينية والقانونية ؛ إلا أنهم أخذوا منذ القرن الرابع عشر في ترجمة المؤلفات إلى التركية ، ثم ذكر في الفصل الثامن عشر وعنوانه : (انتصار التعصب) بعض المعارك الفكرية المبكرة بين التقليد والانفتاح على ثقافات الآخرين مع ذكر أمثلة من ذلك، وتحدث عن اتخاذ المذهب الحنفي للدولة الذي سبقهم إليه السلاجقة في اتخاذه مذهباً منذ زمن بعيد وموقف الدولة من المذاهب الأخرى .

ويأتي الفصل التاسع عشر وعنوانه : (الثقافة الشعبية والطرق الصوفية) . تحدث فيه عن أهمية الطرق الصوفية في الأناضول قبل العثمانيين وبعدهم، وبين نظام الزوايا وتحدث بإسهاب عن البكتانية ودورها وارتباطها مع الانكشارية. ثم يختم المؤلف كتابه ويلحقه بملحق عن السلالة العثمانية الحاكمة في أربع صفحات، وملحق كرونولوجيا التاريخ العثماني في ١٦ صفحة أهم الأحداث في الدولة العثمانية من عام ١٣١٠ - ١٦٠٦م ثم ملحق مهم بالمصطلحات العثمانية فيه تعريف ب ٢١١ مصطلحاً عثمانياً، وألحقه كذلك ببعض الصور والمنمنمات وفهرس للأعلام وآخر للاماكن .

كانت الترجمة حقيقة ممتازة من مترجم متمكن ، لكن لا يخلو الكتاب من ملاحظات سواء في التأليف أو الترجمة منها : استخدام المترجم التاريخ الميلادي الذي استخدمه المؤلف . وكذلك الحشد والتركيز في بعض الفصول دون البعض الآخر ، وتداخل بعض الفصول مع بعضها في مواضع لا داعي أن تكون فصلاً مستقلاً كالفصلين السابع الثامن وهما في الحقيقة عند القراءة فصل واحد وكذلك الفصول التاسع والعاشر والرابع عشر والخامس عشر ، والمؤلف كونه تركياً ، فإنه انطلق لا شعورياً مع عالمه التركي في الأناضول والتركيز عليه دون المناطق الأخرى كما يتضح للقارئ.

والكتاب أتى مختصراً ومركزاً إلى حد كبير، فقد أعد خصيصاً للباحثين والمهتمين ، فقارئ الكتاب هذا لابد أن يكون ملماً ولو بشيء عن التاريخ العثماني . إن التاريخ العثماني تاريخ طويل ومتشابه لدولة استمرت ستة قرون؛ بسطت نفوذها على مناطق في ثلاث قارات وعاصرت كل الأحداث الكبرى والمهمة في التاريخ الحديث ، يصعب الإحاطة به بكافة جوانبه .. وكما قال أحد أساتذة التاريخ الحديث إن التاريخ العثماني هو تاريخ العالم .